المجنون

جبران خليل جبران

المجنون

The MADMAN

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ المجنون/ جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2003 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب 30598

هاتف: 5617071 فاكس: 56113241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1898 ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان 1902 بلغه خبر وفاة أختـه (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام 1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز 1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة 1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام 1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام 1920 بكتاب (السابق) وعام 1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام 1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمـا بنيـة الأدب الجـبراني، فتتـألف مـن مزيـج مـن العنـاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقـت نفسـه، وإذا كنّـا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منـه إلـى التدليل على وجودهـا. أمـا كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى فـي تمجيده للإنسـان، الـذي لا يـراه محـور الكـون، ولـبَّ الوجـود وحسـب، بـل إنـه يرفعـه إلـى مصـاف الألوهيـة، إذ إنّ (الإنسـانية روح الألوهيـة علـى الأرض) علـى حـد تعبيره فـي نصـه (صـوت الشـاعر).وهـو يقـول فـي (نشـيد الإنسـان): (أنـا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العنـاصر، ومثـل عمـود نـور منتصبـة بـين خرائـب بـابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن	لا ولا فيها الهموم
فإذا هبّ نسيم	لم تجئ معه السموم
ليس في الغابات حرّ	لا ولا العبد الذميم
إنما الأمجاد سخف	وفقاقيع تعوم
لم أجد في الغاب فرقاً	بين نفس وجسد
فالهوا ماء تهادى	والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ	وتنشّفتَ بنور
وشربت الفجر خمراً	في كؤوس من أثير
هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً	وتَلَحَفّتَ الفضا
زاهداً فيما سيأتي	ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، وولَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحون تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ   جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجّود في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

المجنون

دراسة تحليليّة

مجنون جبران
والإنسان الكامل

بعد أن حقّقت له أعماله العربية شهرة واسعة في أقطار الوطن العربي، وعند أفراد الجالية العربية في أمريكا. بدأ جبران الكتابة باللغة الانكليزية. وربما كان من أهم العوامل التي دفعته إلى ذلك، وجوده في (بوسطن)، ورغبته في التفاعل المباشر مع الحركة الأدبية الناشطة فيها، بالإضافة إلى إيمانه بنفسه كصاحب رسالة إنسانية عامة، لا تقتصر على مخاطبة أبناء أمته والناطقين بلغته فحسب، بل يطمح إلى توصيلها إلى البشرية جمعاء. وقد يكون شعر في قرارة نفسه، أنه يحمل الكثير من العناصر الثقافية التي ورثها من التراث العربي والشرقي، والتي يمكن له أن ينقلها إلى الجمهور الأمريكي أو

الغربـي. وبـالرغم مـن قناعتـه التـي عـبّر عنـها فـي رسـائله إلـى (مـاري هاسـكل) من أنه لن يستطيع أن يغيّر في اللغـة الانـكليزية، كمـا غـيّر فـي اللغـة العربيـة، فـإن هاسـكل عـبّرت مـراراً عـن إعجابـها بإدراكـه لأسـرار اللغـة الانـكليزيـة وعبقريـة أدائـها. ولا شـك أن علاقتـه بمـاري هاسـكل لعبت دوراً فعّالاً فـي توجهـه إلـى الكتابـة بالانـكليزيـة.فقـد كـانت تقـوم بمراجعـة كـل مـا يكتبـه، حتـى بعـد أن غـادرت بوسـطن وتزوجـت، فقدكـان يرسـل إليـها مخطوطـات كتبـه لتصلحـها لـه قبـل الطباعة[1].

وهـكذا، صدر كـتاب (المجنون)، وهـو أول كـتاب لجبران باللغة الانـكليزية عام 1918. وإن كـانت بعض فصوله قد ظهرت قبل ذلك، في مجلة (الفنون)، بعد أن قـام جبران نفسـه بترجمتها مـن الانـكليزيـة إلـى العربيـة. وهـذه الفصـول هـي: (الليـل والمجنـون) تمـوز 1916، و(الفلكـي) كـانون أول 1917، و(النمـلات الثـلاث)شـباط1917، و(الحكيمـان) تشـرين الثـاني1917، و(بـين الفصـل والوصـل، وعنوانـها فـي الأصـل الانـكليزي: وريقة عشب وورقة خريف) تشرين الثاني 1917[2].

ويمكـن لنـا أن نتبيّن الأهميـة التـي كـان يوليـها جـبران لشـخصيّة بطلـه (المجنـون) مـن خـلال مـا كـان يقولـه عنـه فـي رسـائله إلـى (مـاري هاسـكل). فهو يقـول لـها فـي رسـالة كتبـها عـام 1912: (إن المجنـون ليـس

---

[1] توفيق صايغ-أضواء جديدة على جبران-دار رياض الريس-الطبعة الثانية1990 صفحة 44.

[2] د. خليـل حـاوي- جـبران خليـل جـبران-إطـاره الحضـاري وشـخصيته وآثـاره- دار العلـم للملايين- بيروت-الطبعة الأولى 1982-صفحة198.

مجنوناً، لكنه بعيد، ومختلف). ويكتب لها في رسالة أخرى عام 1913: (اني أغمض عينيّ وأفكّر، أفكّر بمجنوني، الذي أحبه وأحترمه. انه عزاء ما، وملجأ، بالرغم من ابتساماته الواسعة. إني أفيء اليه كلما كنت مريضاً أو متعباً. انه سلاحي الوحيد في هذا العالم المسلح تسليحاً غريباً) وفي رسالة ثالثة عام 1914 يقول: (إن المجنون مثل هاملت، فالحياة أبداً تقولب ذاتها وتتخذ شكلاً في عقله، في حين أن الحياة فوضى في جلها، في حال معظم العقول الأخرى، ولا تتخذ شكلاً إلا في أجزاء صغيرة منها هنا وهناك). كما يقول لماري فيما بعد: (في مجنوني شيء غريب. إن الانسان، بشكل من الأشكال، أكثر بكثير من نتاجه، والمجنون هو أقل مني. لكنه في بعض الأحيان أعظم مني. إنه ينتشلني، وأود أن أرتفع بحياتي إلى مستواه. انه يجعلني أفضل، لأنه أفضل مني، وهو كائن حي، واني أكتشفه الآن أكثر فأكثر)[3].

وعلى كل حال، ففي أعمال جبران العربية أكثر من إشارة إلى (الجنون)، وأكثر من شخصية أطلق عليها صفة (المجنون). ومنها يتضح أن الجنون عنده يرتبط بالاختلاف عما هو سائد، وبعدم قبول الواقع وما يفرضه من ابتعاد عن المواصفات التي تليق بحياة الإنسان باعتباره ممثلاً للألوهية على الأرض، ومن ثم بالرغبة في التمرد على هذا الواقع، ورفض الشرائع والتقاليد الظالمة التي يفرضها، وبالطموح إلى بناء عالم آخر، أكثر إنسانية وجمالاً وعدالة، ولو بالوهم وحده.

[3] توفيق صايغ- مرجع سبق ذكره، صفحة283و284

ففي كتاب (عرائس المروج) نجد (يوحنا المجنون)[4] وقد اكتشف مدى ما ينضوي عليه الواقع من بؤس وظلم وقهر اجتماعي بسبب سيطرة التحالف الأسود القائم بين الحكّام ورجال الدين والأغنياء أصحاب الشرف الموروث. كما اكتشف مدى الزيف والنفاق الذي يخبئه رجال الدين تحت أرديتهم السوداء مستخدمين أقدس ما في الحياة لتعميم شرور الحياة. فيرفض (يوحنا) هذا الواقع، ويتمرّد عليه. ولذلك فإن صفة (الجنون) التي تلحق باسمه تعني قيامه بـ(الكشف) و(الرفض) و(التمرد) .

أما (الإله المجنون)[5] في كتاب (العواصف) فيقول: (أنا ربّ نفسي)، بمعنى أنه لا يخضع لأية شريعة، ولا يعترف بقدسية أية تعاليم أو مبادئ غير تلك التي تنبع من نفسه ذاتها. ويقول أيضاً : (أنا مجنون قوي أسير فتميد الأرض تحت قدمي وأقف فتقف معي مواكب النجوم. وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة، وفهمت أسرار الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبابرة الليل.). فالجنون قوة، لأنه يلغي جميع مصادر الخوف التي تحدّ من حرية البشر، لذلك يهزأ بهم المجنون، وهو كذلك فهم لأسرار الوجود والكون، لأنه يمنح المجنون القدرة على تجاوز الواقع إلى ما ورائه (مثل ملوك الجان) والقدرة على رؤية المخفي والمحجوب (مثل جبابرة الليل). وعندما يدعو (الإله المجنون)

---

(4) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران العربية- دار صادر-بيروت- الطبعة الأولى عرائس المروج صفحة 69

(5) المرجع السابق-صفحة367

إلـى دفـن جثـث لأحيـاء /الأمـوات المكردسـة حـول منازلـهم ومحاكمـهم ومعـابدهـم ، فإنمـا يعبـر عـن رفـض الخنـوع إلـى الواقـع السـاكـن الثـابت. وعتدما يدعو إلى الركض مع العاصفة، فإنما يعبّر عن التوق إلى الثورة والحرية والتحوّل الدائم.

وفي قصيدة (المواكب) إشارة إلى أن (المجنون) هـو المحب الـهائم الـذي يعيش الحب فـي أسـمى حالاتـه، و يختلف عـن بقيـة النـاس الذيـن ابتذلوا الحب إلى مجرد نزعة شـهوانية مادية عـابرة. وبذلـك فـإن المجنـون هو (العارف) بحقيقة الحب، بينما الآخرون بُهْمٌ ماتوا قبل أن يولدوا[6]:

فــإن لقيــت محبــاً هائمــاً كلفــاً	فــي جوعــه شــبعٌ فــي وردهِ الصــدرُ
والناس قالوا هـو المجنون مـاذا عسـى	يبغـي مـن الحـب أو يرجـو فيصطـبر
فقـل هـم البـهمُ مـاتوا قبلمـا ولـدوا	أنى دروا كنه ما يحيى ومـا اختبروا

ويستخدم جبران لفظة (الجنون) ليصف بها نفسـه أيضـاً، بعـد أن يعطيها دلالات تشير إلى التطرف و الاختلاف والنقمة علـى مـا هـو سـائد بـين البشـر مـن تقديـس للشـرائع والعقـائد والعـادات المزيفـة والبـائدة، ورفضهم فتح قلوبهم وعقولـهم أمـام ريـاح التجديد والتحديـث. فـهو يقـول في مقالة (المخدرات والمباضع)[7] في معرض ردّه على مـا أثارتـه كتاباتـه من ردود أفعال عند المحافظين من الكتـاب والقـرّاء العـرب: (هـذا بعـض ما يقوله الناس عني وهم مصيبون، فأنا متطرف حتى الجنون، أميل إلى

---

[6] المواكب - صفحة359

[7] المرجع السابق صفحة404

الهدم ميلي إلى البناء، وفي قلبي كره لما يقدّسه الناس وحب لما يأبونه، ولو كان بإمكاني استئصال عوائد البشر وعقائدهم وتقاليدهم لما ترددت دقيقة).

وفي الحقيقة، فإن في وسع المرء أن يجد مصادر لهذا المفهوم عن شخصيّة (المجنون) في التراث العربي. فكتب التراث حافلة بالأخبار والحكايات والأقوال التي تمنح (المجنون) دلالات وصفات خاصة، تأتي في مقدمتها دلالة (الاختلاف). فالمجنون هو (المختلف)، لأنه يخالف الناس فيما دأبوا عليه من عادات، ورضخوا له من تقاليد وشرائع، ولأنه يدعو إلى الجديد المختلف الذي لم يألفوه، وبهذا المعنى كانت الأمم تعتبر الأنبياء والرسل (مجانين) . وهذا ما يقوله النيسابوري في كتابه (عقلاء المجانين) : (والمجنون عند الناس من يسمع ويسبّ ويخرّق الثوب، أو مَن يخالفهم في عاداتهم، فيجيء بما ينكرون، ولذلك دعت الأمم الرسل مجانين لأنهم شقّوا عصاهم، فنابذوهم وأتوا بخلاف ما هم فيه)[8].

أما الدلالة الثانية فهي (الرفض والتمّرد). ذلك أن (الاختلاف) يقود (المجنون) إلى رفض الواقع الذي يستكين إليه بقية الناس، والتمرّد على ما ينضوي عليه هذا الواقع من عبودية وشرائع وتقاليد جائرة وظالمة. فقد ورد في كتاب (عقلاء المجانين) أيضاً: (حدثنا مشايخ همدان قالوا: كان عندنا مجنون تجتمع عليه الناس، فإذا اجتمعوا عليه قال لهم:

---

(8) عقلاء المجانين أبو القاسم الحسن بن حبيب النيسابوري--دار النفائس- بيروت-1987- صفحة30.

ترون ما أنتم فيه من حيرتكم وغفلتكم شيئاً ما هو إلا محنة العبودية ووطأة الشريعة في الدنيا ، والحبس والحساب والسؤال والعذاب في الآخرة)[9].

وما كان (للمجنون) أن يكون مختلفاً ورافضاً متمرداً ، لو كان في حالة من الغفلة أو الجهل أو ذهاب العقل. لذلك فالدلالة الثالثة تظهره في صورة (العارف المستبصر). فالجنون هو حجب للغفلة لا للمعرفة. يقول النيسابوري: (سمعت محمد بن علي بن الحسن الكوفي يقول: قال رجل لعليان المجنون: أجننت؟ قال: أما عن الغفلة فنعم، وعن المعرفة فلا)[10].

والدلالة الرابعة هي (البلاغة والحكمة). فالمجنون متكلم فصيح، قادر على قول ما يعجز الآخرون عن قوله، كما ان أقواله تتصف بالبلاغة الآسرة، والحكمة الساحرة، لذلك يسعى الناس إلى التقاط أقواله وحفظها وترديدها. . فهذا ابن عبد ربه يقول في (العقد الفريد) : (وقد يأتي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يُسمَعُ بمثله)[11].

وكل ما سبق يفضي إلى الدلالة الخامسة المتعلقة بـ(القداسة). فالصفات السابقة بمجملها جعلت عامة الناس، وخاصتهم من حكّام

[9] المرجع السابق-صفحة 323.

[10] المرجع السابق صفحة 163.

[11] العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي-دار الكتب العلمية-بيروت-1983 - الجزءالسابع-صفحة 180.

ومتنفذين، يهابون (المجنون) ويتبرّكون به، ويعدّونه بين الأولياء والقديسين. فقد جاء في كتاب (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار): (سيدي عبد القادر الدشطوطي الذي كانت له هيئة المجاذيب، كان له القبول التام عند الخاص والعام. وكان السلطان قايتباي يمّرغ وجهه على أقدامه)[12].

ولا شكَّ أن جبران قد استلهم تلك الدلالات التراثية، حين جعل مجنونه مختلفاً ورافضاً متمرداً وعارفاً مستبصراً. وراح يضع على لسانه الأقوال البليغة التي تظهر فلسفته وحكمته ورؤيته للوجود والإنسان. بعد أن منحه هالة من القداسة، تجعله صلة الوصل بين العالم الواقعي، عالم البشر العاديين، وبين العالم العلوي، عالم الروح الكلي الخالد.

فمنذ النص الأول الذي حمل عنوان (كيف أصبحت مجنوناً)، وجاء كفاتحة للكتاب، يسبغ جبران على (مجنونه) طابع (الأسطورة) و(القداسة) عندما يجعله قديماً قدم الزمان نفسه، لأنه موجود قبل ميلاد كثيرين من الآلهة. وقد خبر سبع حيوات على الأرض، كما كان لديه سبعة براقع. ولا يخفى ما للعدد (سبعة) من قداسة مرتبطة بالأساطير القديمة. وفي النص الثاني (الله) يقرن بين (المجنون) وبين النبي (موسى كليم الله)، حين يصعد إلى الجبل المقدس ويخاطب ربه. بل إن الله يعطف عليه وينحني فوقه ويطويه في أعماقه. أما في النص الثالث (يا صاحبي) فيقرن بينه وبين (المسيح) عليه السلام حين يقول: (أريد أن

---

[12] لواقح الأنوار في طبقات الأخيار-عبد الوهاب الشعراني-الجزء 2 الصفحة 125.

أمشي على البحر وحدي). وعندما يتحدث (المجنون) عن أفكاره العميقة المرفرفة فوق البحار، فهو يؤكد تماهيه مع الروح الكلي الخالد، الروح الذي يرفرف فوق الغَمر.

ويدرك مجنون (جبران) اختلافه عن الآخرين، فهو يقول لصاحبه: لكنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد. ويقول له أيضاً: إن طريقي غير طريقك. وما (الاختلافه) عن الآخرين سوى نتيجة لعودته إلى حقيقته عندما خلع البراقع التي كان يتقنّع بها، فقبّلت الشمس وجهه العاري لأول مرة. فعندها فقط هرب منه الرجال والنساء وصرخوا: إن هذا الرجل مجنون. لأنه صار (مختلفاً) عنهم.فهم يعيشون في حالة من الزيف والجهل والظلام، و لا يريدون خلع براقعهم التي يختبئون وراءها، و لا يتحمّلون أن تلفح وجوههم شمس الحقيقة.

ولذلك يعمد (المجنون) في عدد من نصوص الكتاب، إلى كشف التناقض القائم بين زيف الظاهر، وبين حقيقة الباطن. ففي نص (بين هجعة ويقظة) نرى امرأة وابنتها، ولهما عادة المشي أثناء النوم. وعندما تتقابلان أثناء مشيهما في حالة النوم (أي الحالة التي تكونان فيها مجردتين من أقنعة الزيف) تفصح كل منهما للأخرى بحقيقة ما تكنّه لها من مشاعر الكره والحقد. ولكن عندما تستيقظان من نومهما، تعود كل واحدة منهما إلى ما اعتادت عليه من زيف ،فتخاطب الأخرى بلطف مصطنع، وحنان كاذب.

وفي نص (الملك الحكيم) نرى كيف يطغى الواقع المزّيف على

الحقيقة، فتنقلب المفاهيم. فالملك الحكيم ووزيره اللذان لم يفقدا عقليهما لأنهما لم يشربا من بئر الجنون الذي شرب منه عامة الناس، أصبحا مجنونين في نظر الناس، مما اضطرهما إلى الشرب من البئر ذاته حتى يتم قبولهما مجدداً من سكان مدينتهم.

ومن مظاهر زيف الواقع أيضاً ما نجده في نص (الطموح)، حيث صاحب الحانة وزوجته يصفان زبائنهما الثلاثة بالكرم والشرف، لأنهم ينفقون المال من غير حساب، رغم أن هذا المال كان نتيجة لموت إنسان. ومع ذلك يتمنيان أن يسعدهما الحظ كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن (مما يعني رغبتهما في موت المزيد من البشر)، ليتمكنا من إعفاء ابنهما الوحيد من خدمة الحانة القذرة، ليصير قسيساً! وهكذا يكشف (مجنون جبران) حقيقة رجال الدين، وزيف ادعائهم بأن الله قد اختارهم لتمثيله على الأرض. فالقسيس الذي يبدو في الظاهر تقيّاً ورعاً، قد لا يكون في الأصل سوى خادم حانة قذرة، استفاد من موت البشر لينصّب نفسه متكلماً باسم الشريعة الإلهية !.

كما يكشف حقيقة من يدّعون العلم والفلسفة في نص (اللعين). فالفيلسوف العلامة ليس سوى (شاخص) أو تمثال محشوّ بالقش، يعجز عن تقديم أية منفعة أو أداء أي عمل حقيقي. لذلك يبني الغرابان عشهما تحت قبعته!.

وفي نص يحمل عنوان (العالمان) نجد أن (الصراع الفكري) الذي يحتدم بين (علماء) الأفكار القديمة ليس سوى صراع مزيّف أيضاً. لأن

قناعة العالِم بما يحمله من أفكار هي قناعة واهية لا تصمد أمام أي جدال. كما أن ما يظهره العالِمُ لمريديه وأنصاره يختلف عما يؤمن به فعلاً في قرارة نفسه.

أما في نص (الكلب الحكيم) فيبيّن الزيف الذي يمارسه الحكماء حين يوهمون السنانير أن السماء تمطر فئراناً، بينما يعتقد الكلب الحكيم أنها تمطر عظاماً! كما يسخر من هؤلاء الذين يفهمون تعاليم الشريعة فهماً حرفياً دون أن يكونوا قادرين على إدراك معانيها الحقيقية، وذلك في نص (المدينة المباركة).

وفي نص (العدالة) يظهر مدى زيف وتهافت مفهوم (العدالة) في المجتمعات البشرية. فالعدالة البشرية المزعومة لا ترى المساواة بين الأفراد إلا في ظل القهر والقمع، ففي السجن وحده يصبح الزرزور أخاً للأسد كما نرى في نص (القفصان).

وفي نص (الثعلب) يؤكد على أن البشر يؤخذون بالمظاهر والقشور والظلال، اكثر من الحقيقة. وهو ما يقوله أيضاً في نص (النملات الثلاث). فكل نملة ترى الواقع من خلال نظرتها المحدودة الضيّقة، دون أن تكون أية واحدة منهم قادرة على إدراك الحقيقة، مما يؤدي إلى انسحاقها جميعها تحت أصابع الواقع. وهو ما يشير أيضاً إلى أن الانسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود بحواسه المحدودة. وهذا ما يقوله نص (العين) أيضاً، حيث لا تعترف الحواس بوجود الشيء إلا إذا كان في متناول إدراكها، وإذا استطاعت حاسة ما (كالعين) أن ترى

ما لا تدركه الحواس الأخرى فتكون (قد خرجت ولا شك عن صوابها) أي أصابها (الجنون). مما يعني أن للجنون دلالة على القدرة على رؤية ما لا تراه العيون، وإدراك ما لا يدركه الآخرون.

وهكذا يصبح (المجنون) هو (الرائي) و(العارف المستبصر) ،لأنه القادر على اختراق حجب المظاهر الخارجية للنفاذ إلى الحقيقة الكامنة في لب الأشياء. فالمعرفة الحقّة ليست تلك التي نلمسها بحواسنا، ولا تلك التي نتوصّل إليها بملكاتنا العقلية وحدها. بل هي المعرفة التي ندركها بالبصيرة، ونشعر بها بالحدْس ، ونقاربها من خلال إزالة حجب الواقع ،لتتمكّن نفوسنا من التواصل مع الروح الكلي الخالد. لذلك يقول (المجنون) في نص (الوجوه): (أنا أعرف الوجوه لأنني أنظر إليها من خلال ما ينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي). ولذلك أيضاً نجد (الأعمى) في نص (الفلكي) يرصد الشموس والأقمار والنجوم. لأن الرؤية الحقيقية لا تحتاج إلى عينين.بل تحتاج إلى (الذات السابعة التي تظل شاخصة تراقب اللاشيء الذي وراء كل شيء).

و لا يعادل شوق (المجنون) إلى المعرفة، سوى شهوته إلى الوحدة مع أشياء الوجود، التي تربطه بها محبة أعمق من أعماق البحر وأقوى من قوة الجبل وأغرب من غرائب الجنون، كما يقول في نص (الحنين الأعظم). ولا تكتمل وحدة الوجود هذه إلا بإيمانه أنه ليس سوى جدول يطويه الله في أعماقه. لذلك يخاطب المجنون ربه في نص (الله) قائلاً: (إلهي الحكيم العليم، يا كمالي ومحجتي، أنا أمسك وأنت غدي. أنا

عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات، ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس.)

وهكذا. فقد أراد جبران أن يكون مجنونه تجلّياً لمفهومه عن (الإنسان الكامل) الذي طالما تحدّث عنه في كتبه السابقة. ويمكن لنا أن نستخلص سبل بلوغ الإنسان مرحلة (الكمال) من خلال ما يقوله الليل للمجنون في نص (الليل والمجنون). واهم هذه السبل:ألا يلتفت الإنسان إلى الوراء ليرى آثار اقدامه على الرمال، وألا يرتعش أمام الآلام كي لا يهوله سماع أناشيد الهاوية، وألا يتخذ من ذاته الصغرى رفيقاً، بل يتخذ من ذاته الجبّارة صديقاً، وأن يكون شريعة نفسه، ويزيل القناع ذات الطيّات السبع عن روحه، ويحمل قلبه على كفّه. فعندها يستطيع أن يمتطي العاصفة جواداً، ويمتشق البرق حساماً، وتتكشّف له مكنونات اللانهاية، كما تتكشف له مكنونات نفسه.

ومع ذلك، يدرك جبران أن بلوغ مرحلة (الإنسان الكامل) ليس سوى حلم (ميتافيزيقي) بعيد المنال. فيصرخ على لسان المجنون في السطور الأخيرة من الكتاب: (ولكن لمَ أنا ههنا يا رب؟ لم أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل شهوتها من النماء، وعاصفة صمّاء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر؟.. لمَ أنا ههنا؟ لمَ أنا ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة؟).

د. نزار بريك هنيدي

دمشق 14 / 11 / 2002

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (9)

المجنون

The MADMAN

BY KAHLIL GIBRAN

(1918)

كيف صرت مجنوناً؟

هذه قصتي إلى كل من يودّ أن يعرف كيف صرتُ مجنوناً: في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سرقت - البراقع السبعة التي حكتها وتقنعت بها في حيواتي السبع على الأرض - فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة صارخاً بالناس: اللصوص اللصوص اللصوص الملاعين فضحك الرجال والنساء مني وهرب بعضهم إلى بيوتهم خائفين مذعورين.

وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتىً قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلاً: إنّ هذا الرجل مجنون أيها الناس! وما رفعت نظري لأراه حتى قبلت الشمس وجهي العاري لأول مرة. لأول مرة قبلت الشمس وجهي العاري فالتهبت نفسي بمحبة الشمس ولم أعد بحاجة إلى براقعي. وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: مباركون مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي!.

هكذا صرت مجنوناً، ولكني قد وجدت بجنوني هذا، الحرية

والنجاة معاً: حرية الانفراد، والنجاة من أن يدرك الناس كياني، لأن الذين يدركون كياننا إنما يستعبدون بعض ما فينا.

ولكن لا افخرنّ كثيراً بنجاتي، فإن اللصّ وإن كان في غيابة السجن فهو في مأمن من أقرانه اللصوص!.

الله

عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة، صعدت إلى الجبل المقدس وناديت الله قائلاً: إنني عبدك يا ربي، مشيئتك الخفية شريعتي، وسأظلّ خاضعاً لك سحابة الحياة.

فلم يجبني الله بل مرّ كعاصفة هوجاء واختفى عن ناظري.

وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس وخاطبت الله قائلاً: أنا جبلة يديك يا خالقي، من تراب الأرض صنعتني وبنفحة من روحك العلوية أحييتني. فأنا مدين لك بكليتي.

فلم يجبني الله، وكألف من الأجنحة الخاطفة اجتاز بي عابراً.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس أيضاً وناجيت الله ثالثة قائلاً: يا أبتاه القدوس، أنا ابنك الحبيب. بالرأفة والمحبة ولدتني وبالمحبة والعبادة سأرث ملكوتك.

فلم يجبني الله في هذه المرة أيضاً، وكالضباب الذي يغشى قصيّ التلال توارى عن عيني.

وبعد ألف سنة صعدت إلى الجبل المقدس وخاطبت الله رابعة

قائلاً: يا إلهي الحكيم العليم، يا كمالي ومحجتي، أنا أمسك وأنت غدي. أنا عروق لك في ظلمات الأرض وأنت أزاهر لي في أنوار السماوات ونحن ننمو معاً أمام وجه الشمس.

فعطف الله إذ ذاك علي وانحنى فوقي وهمس في أذني كلمات تذوب رقة وحلاوة، وكما يطوي البحر جدولاً منحدراً إليه طواني الله في أعماقه.

وعندما انحدرت إلى الأودية والسهول كان الله هنالك أيضاً.

يا صاحبي

يا صاحبي: إنني لست على ما يبدو لك مني، فما مظاهري سوى رداء دقيق الصنع محوك من خيوط التساهل والحسنى، ألتف به ليدرأ عني تطفلك ويقيك من إهمالي وتغافلي. وأما ذاتي الخفية الكبرى التي أدعوها أنا فسرّ غامض مكنون في أعماق سكون نفسي ولا يدركه أحد سواي، وهنالك سيبقى أبداً غامضاً مستتراً.

يا صاحبي: إنني أود أن لا تصدق ما أقول وأن لا تثق بما أفعل، لأن أقوالي ليست سوى صدى لأفكارك، وأفعالي ليست سوى أشباح آمالك.

يا صاحبي: عندما تقول لي: الريح تهبّ شرقاً أجيبك على الفور قائلاً: نعم إنها تهب شرقاً لأنني لا أريد أن يخطر لك أن أفكاري السابحة مع أمواج البحر لا تستطيع أن تحلق طائرة على متون الرياح. أما أنت فقد مزقت الأرياح نسيج أفكارك القديمة البالية فبت قاصراً عن إدراك أفكاري العميقة المرفرفة فوق البحار. وحسن أنك لم تدرك كنهها لأنني أريد أن أمشي على البحر وحدي.

يا صاحبي: عندما تبزغ شمس نهارك تدنو ظلمة ليلي، ومع ذلك فإني أحدثك من وراء ستائر ظلمتي عن أشعة الشمس الذهبية التي ترقص عند الظهيرة على قنن الجبال وعما تحدثه في رقصها من الظلال

الظليلة المنسابة إلى الأودية والحقول. أحدثك عن كل ذلك لأنك لا تستطيع أن تسمع أناشيد ظلمتي ولا أن ترى خفقان جناحي بين الكواكب والنجوم. وما أحلى أنك لا تسمع ولا ترى ذلك لأني أوثر أن أسامر الليل وحدي.

يا صاحبي: عندما تصعد إلى سمائك أهبط إلى جحيمي. ومع أنه تفصلني عنك هوةٌ لا يستطاع عبورها تظل تناديني قائلاً: يا رفيقي، يا صاحبي، فأجيبك: يا رفيقي، يا صاحبي، لأنني لا أريد أن ترى جحيمي، فإن لهيبه يحرق باصرتيك ودخانه يسد منخريك. أما أنا فإنني أضن بجحيمي أن يزوره من كان على شاكلتك، لأنني أفضل أن أكون في جحيمي وحدي.

يا صاحبي: أنت تقول إنك تعشق الحق والفضيلة والجمال، وأنا أقول مقتدياً بك إنه يليق بالإنسان أن يعشق مثل هذه المناقب، غير أنني أضحك من محبتك في قلبي ساتراً ضحكي عنك، لأنني أريد أن أضحك وحدي.

يا صاحبي: إنك رجل فاضل متيقظ حكيم، بل إنك رجل كامل. ولذلك فإني ضناً بكرامتك أخاطبك بحكمة وتيقظ. ولكنني مجنون منجذب عن العالم الذي تقطنه أنت إلى عالم غريب بعيد، وإنني أستر عنك جنوني لأنني أود أن أكون مجنوناً وحدي.

أنت لست بصاحبي، يا صاح! ولكن كيف السبيل لإقناعك فتفقه وتفهم؟

إن طريقي غير طريقك ولكننا نمشي معاً جنباً إلى جنب.

اللعين

قلت مرة للعين[1]: ألم تسأم نفسك الإقامة في هذا الحقل وحيداً منفرداً؟.

فأجابني قائلاً: إن لي في التخويف لذةً لا يسبر غورها، ولذا فإني راضٍ عن عملي ولا أمله.

ففكرت هنيهة ثم قلت له: بالصواب أجبت، فإنه قد سبق لي فخبرت هذه اللذة بنفسي.

فأجابني قائلاً: إنك واهم يا هذا، فإن هذه اللذة لا يعرف طعمها إلا من كان محشواً بالقش مثلي.

فتركته إذ ذاك وانصرفت وأنا لا أدري هل مدحني أم تنقّصني.

وانقضى عام صار اللعين في أثنائه فيلسوفاً علامةً. وعندما مررت به ثانية رأيت غرابين يبنيان عشاً تحت قبعته.

---

[1] هو الشخص الذي ينصب في هيئة الرجل بين الزرع لطرد الوحوش.

بين هجعة ويقظة

كان في المدينة حيثما ولدت امرأة وابنة، وكانت لهما عادة أن تمشيا وهما نائمتان.

فحدث في إحدى ليالي الصيف الهادئة الجميلة أن نهضت الأم وابنتها من نومهما على جاري عادتهما ومشتا - وهما نائمتان - في حديقتهما المبرقعة بالضباب.

وفيما هما ماشيتان قالت الأم لابنتها: تباً لك من عدوٍ شرير! أنت التي هدمت شبابي وبنت حياتها على أنقاض حياتي! آه لو أستطيع أن أقتلك.

فأجابت الابنة وقالت: أيتها المرأة الممقوتة والحيزبون الأنانية الرثة القائمة بيني وبين ذاتي الطليقة، يا من تود أن تكون حياتي صدى لحياتها الرثة البالية! ألا ليتك تهلكين!.

وفي تلك اللحظة صاح الديك فأفاقتا معاً من نومهما وهما بعد في الحديقة ماشيتان.

فقالت الأم بلطف: أذاك أنت يا حمامتي؟ فأجابت الابنة بحلاوة: نعم أنا ابنتك يا حنونتي!!.

الناسكان

عاش ناسكان في قنة جبلٍ عالٍ، وكانا دائبين في عبادة الله وحبهما الواحد للآخر.

وكان لهذين الناسكين قصعة من الخزف لم يكن لهما غيرها مقتنى.

ففي أحد الأيام وسوس الخناس في قلب الناسك الكهل فجاء إلى رفيقه الشاب وقال له: لقد مضى على حياتنا معاً زمن طويل وقد آن لنا أن نفترق. ولذا فإني أريد أن نقسم مقتنياتنا.

فاكتأب الناسك الشاب وأجابه قائلاً: إن انفصالك عني يجرح قلبي وحقك يا أخي. ولكن إن كان ثمة من ضرورة لذهابك فلتكن مشيئتك.

ثم تناول القصعة الخزفية بيده وقال له: إن هذه القصعة هي كل ما نقتني أيها الأخ العزيز، ولما كانت قسمتها بيننا مستحيلة فأرى أن تكون لك وحدك.

فأجابه الناسك الكهل وهو يتميز غيظاً قائلاً: إنني لا أطلب

منك صدقة ولا أقبل متاعاً ليس لي، ولذا يجب أن تقسم القصعة فينال كل منا نصيبه منها.

فقال له الشاب برقة: إذا قسمنا القصعة فأية منفعة ترجى من قسمتها سواء لك أم لي؟ دعنا إن حسن لديك نقترع عليها.

فأجابه الكهل وقال: إنني لا أريد سوى حصتي كما تقضي العدالة بيننا. ولن أرضى البتة عن القرعة العمياء التي تحط من قدر العدالة وتجعلني مقامراً أعرض العدالة وحصتي لصدفة عمياء. ولذا أطلب قسمة القصعة.

فلم يبق إذ ذاك مجال للشاب أن يبحث معه في الموضوع، فقال له: إذا كانت هذه حقيقة رغبتك أيها الأخ الحبيب وودت أن يكون الأمر على ما وصفت فلتقسم القصعة.

فاسود وجه الناسك الكهل وصرخ به قائلاً: تباً لك، ما أجبنك وما أقعدك عن الخصام أيها الخامل البليد!.

الكلب الحكيم

مرّ كلب حكيم ذات يوم بجماعة من السنانير، ولما دنا منهم رآهم منصرفين عنه ولم يعبأوا بقدومه. فوقف يتأملهم مستغرباً أمرهم.

وفيما هو يتطلع إليهم نهض من بين الجماعة سنور بادن تبدو على وجهه أمائر الهيبة والوقار، فنظر إلى رفقائه وقال لهم: صلوا أيها الأخوة المؤمنون، فإني الحق أقول لكم إنكم إذا صليتم وكررتم صلاتكم بحرارة يستجاب تضرعكم وتمطركم السماء فئراناً في الحال.

فلما سمع الكلب الحكيم تلك العظة البالغة ضحك منهم في قلبه وارتد عنهم وهو يردد لنفسه قوله: ما أغبى هؤلاء السنانير وما أعمى بصائرهم عن إدراك ما في الكتب! أليس مكتوباً، بل ألم أقرأ أنا وأجدادي من قبل أخبروني أن ما تمطره السماء إجابة للصلوات والتضرعات والابتهالات ليس فئراناً بل عظام.

اطلبوا تجدوا

كان في قديم الزمان إنسانٌ وكان له ملء وادٍ من الإبر. ففي أحد الأيام جاءت إليه أم يسوع وقالت له: يا صاحب، إن رداء ابني مشقوق وأريد أن أرتقه له قبل أن يذهب إلى الهيكل، أفلا تقرضني إبرة؟

فلم يعطها إبرة، غير أنه أعطاها عظة بالغة كانت عنده، موضوعها اطلبوا تجدوا. لكي تأخذها إلى ابنها قبل أن يذهب إلى الهيكل.

الذوات السبع

في سكون الليل العميق وقد بدأ النعاس يغالبني جلست ذواتي السبع يتحادثن:

فقالت الذات الأولى: لقد مرت الأيام والأعوام على وجودي في هذا المجنون وليس لي ما أفعله سوى تجديد آلامه نهاراً وأحزانه ليلاً. وقد كرهت نفسي القيام بهذه الوظيفة المملة، فلأثورن عليه.

فأجابتها الذات الثانية قائلة: إنك أوفر مني حظاً يا أختاه، فقد قدر لي أن أكون شريكة لهذا المجنون في أفراحه وملذاته فأضحك لضحكه وأترنم في ساعات سروره، وبأقدام مثلثة الأجنحة أرقص لأفكاره البراقة، فإن تكن ثورة، فمن أحق بها مني؟

فقالت الذات الثالثة: أواه أيتها الرفيقتاذ إن عملي أدعى إلى الثورة من عمليكما. فأنا الذات المريضة حباً المتلهبة شوقاً الهائمة حنيناً ألا إن الثورة على هذا المجنون من شأني وأنا ذات الشقاء والأسى.

فقالت الرابعة: إنني أكثر منكن شقاء أيتها الرفيقات، فقد قدر لي أن أثير كوامن البغض وأوقظ نيران الكره والحقد في قلب

هذا المجنون، فأنا، الذات الثائرة الهوجاء المولودة في كهوف الجحيم السوداء، أحق منكن بالثورة على مهمتي.

وقالت الذات الخامسة: إنني أغبطكن جميعاً أيتها الأخوات بما قدر لكن من العمل السعيد، فقد آثر الدهر أن أجدد أحلام هذا المجنون التي لا تنتهي، وأهيج جوعه وعطشه اللذين لا يسكنان، هائمة به على وجهي في فضاء اللا نهاية من غير أن أتذوق طعم الراحة، ناشدة ما لم يعرف قط وما لم يخلق بعد، فأنا - أنا أولى منكن بالثورة والعصيان.

فقالت الذات السادسة: ما أسعدكن أيتها الأخوات وما أتعسني وأشقاني فأنا الذات المشتغلة العاملة الحقيرة التي بيديها الدائبتين وعينيها الساهرتين ترسم من أيامها صوراً وتمنح العناصر الدنيئة العديمة الشكل أشكالاً جميلة خالدة - ألا إنه أجدر بي أنا الذات المعتزلة الهادئة أن أنقم وأثور.

فتطلعت الذات السابعة في كل منهن وقالت: أف منكن جميعاً ما أغرب ثورتكن على هذا الرجل المسكين بحجة أن لكل منكن عملاً محموداً. حبذا لو أسعدتني الأيام بعمل محدود كأعمالكن. فأنا ذات بطالة لا عمل لها أجلس أبداً بين اللا نهايتين - الصمت والظلام - في حين أن كل واحدة منكن دائبة في تجديد الحياة على تنوع مظاهرها. بربكن قلن لي أيتها الشقيقات من منا أحق بالثورة، أنتن أم أنا؟

ولما فرغت الذات السابعة من كلامها نظرت إليها الذوات الست بشفقة وحنان ولم يحرن جواباً.

وجن الليل فرقدن وفي طيات صدورهن استسلام جديد وخضوع سعيد كل لما قسم لها من الواجب المحدود!.

أما الذات السابعة فظلت شاخصة تراقب اللاشيء الذي وراء كل شيء.

العدالة

وكان عرس في قصر الأمير في إحدى الليالي، وكان المدعوون يدخلون ويخرجون. فدخل رجل مع الداخلين وحيّا الأمير باحترام ووقار. فنظر إليه الجميع بدهشة لأن إحدى عينيه كانت مفقوءة والدم ينزف من نقرتها الفارغة.

فسأله الأمير قائلاً: ما دهاك يا صاح؟ فأجابه الرجل قائلاً: أنا لص أيها الأمير، وقد اغتنمت فرصة في ظلمة هذه الليلة على جاري عادتي وذهبت لأسرق أموال أحد الصيارفة. وفيما أنا أتسلق الجدار لأدخل دكان الصيرفي ضللت سبيلي ودخلت من نافذة جاره الحائك. فعدوت طالباً الهرب وأنا لا أبصر شيئاً لشدة الظلام، فلطم نول الحائك عيني وفقأها. ولذلك قد أتيتك ملتمساً أن تنصفني من الحائك.

فأرسل الأمير واستدعى الحائك. فأحضر الحائك في الحال، فأمر الأمير أن تقلع عينه.

فقال له الحائك: بالصواب حكمت أيها الأمير، فإن العدالة

تقضي بقلع عيني، ولكنه غير خاف على سموك أنني أحتاج في حرفتي إلى عينين لكي أرى حاشيتي الشقة التي أنسجها. غير أن لي جاراً إسكافاً له عينان مثلي ولكنه لا يحتاج في مهنته إلا إلى عين واحدة. فاستدعه إن أردت واقلع إحدى عينيه للمحافظة على الشريعة.

فأرسل الأمير في الحال واستدعى الإسكاف، فحضر واقتلعت عينه. وهكذا تأيّدت العدالة!.

الثعلب

خرج ثعلب من مأواه عند شروق الشمس، فتطلع إلى ظلّه منذهلاً وقال: سأتغدّى اليوم جملاً. ثم مضى في سبيله يفتش عن الجمال الصباحّ كله. وعند الظهيرة تفرّس في ظلّه ثانية وقال مندهشاً: بلى، إن فأرة واحدة تكفيني.

الملك الحكيم

كان في إحدى المدن النائية ملك جبار حكيم، وكان مخوفاً لجبروته محبوباً لحكمته.

وكان في وسط تلك المدينة بئر ماء نقي عذب، يشرب منها جميع سكان المدينة من الملك وأعوانه فما دون لأنه لم يكن في المدينة بئر سواها.

وفيما الناس نيام في إحدى الليالي جاءت ساحرة إلى المدينة خلسة وألقت في البئر سبع نقط من سائل غريب وقالت: كلّ من يشرب من هذا الماء فيما بعد يصير مجنوناً.

وفي الصباح التالي شرب كل سكان المدينة من ماء البئر وجنوا على نحو ما قالت الساحرة: ولكنّ الملك والوزير لم يشربا من ذلك الماء.

وعندما بلغ الخبر آذان المدينة طاف سكانها من حي إلى حي ومن زقاق إلى زقاق وهم يتسارّون قائلين: قد جنّ ملكنا ووزيره. إن ملكنا ووزيره قد أضاعا رشدهما. إنّنا نأبى أن يملك علينا ملك مجنونٌ. هيا بنا نخلعه عن عرشه!

وفي ذلك المساء سمع الملك بما جرى فأمر على الفور بأن يملأ حق ذهبي (كان قد ورثه عن أجداده) من مياه البئر. فملأوه في الحال وأحضروه إليه. فأخذه الملك بيده وأداره إلى فمه. وبعد أن ارتوى من مائه دفعه إلى وزيره فأتى الوزير على ثمالته.

فعرف سكان المدينة بذلك وفرحوا فرحاً عظيماً جداً لأن ملكهم ووزيره ثابا إلى رشدهما.

الطموح

جلس ثلاثة رجال إلى خوان في حانة. وكان الأول حائكاً والثاني نجاراً والثالث حفار قبور.

فقال الحائك لرفيقيه: قد بعت اليوم كفناً بديعاً من الكتّان بدينارين. فلنشرب ما طاب لنا من الخمر.

فأجابه النجار وقال: أما أنا فقد بعت أثمن نعش عندي. فلنأكل أفخر اللحوم مع الخمر.

فقال لهما حفار القبور: إنني لم أحفر اليوم سوى قبر واحد، أيها الصديقان، ولكن الذي استأجرني دفع لي الأجر مضاعفاً. فلنستحل بقليل من العسل.

فحفلت الخمارة بهم في تلك الليلة لأنهم طلبوا الخمر واللحم والعسل مراراً وكانوا يرقصون طرباً.

أما صاحب الحانة فكان يتلفت بين آونة وأخرى إلى زوجته مبتسماً وهو يكاد لا يصدّق ما يراه بعينيه. لأن ضيوفه الثلاثة كانوا ينفقون المال من غير حساب.

وظلّ الأصحاب في الحانة إلى ساعة متأخرة من الليل يأكلون ويشربون. وبعد أن امتلأوا من كل شيء انصرفوا وهم يغنون ويضجون.

وكان صاحب الحانة وزوجته واقفين بباب حانتهما يشيعان ضيوفهما بأنظارهما.

فقالت المرأة لزوجها: حبذا لو يسعدنا الحظ في كل يوم بمثل هؤلاء الزبائن الكرماء الشرفاء. فإننا نتمكن وقتئذ من إعفاء ابننا الوحيد من خدمة هذه الحانة القذرة ونستطيع تعليمه ليصير في المستقبل قسيساً.

اللذة الجديدة

اخترعت في ليلتي الماضية لذة جديدة.

وبينما كنت أتمتع بها لأول مرة رأيت ملاكاً وشيطاناً قد وقفا ببابي يتخاصمان ويتناقشان على تعريف لذتي.

فكان الأول يصرخ بأعلى صوته قائلاً: إنها خطيئة مميتة.

فيعترضه الثاني قائلاً بصوت أشد من صوته: لا ، لعمري إنها فضيلة.

اللغة الأخرى

حدث أنه بعد ميلادي بثلاثة أيام كنت متكئاً في مهدي الحريري أتفرس بلهفة غريبة في العالم الجديد حوالي.

فقالت أمي للمرضع: كيف حال ولدي اليوم؟ فأجابتها قائلة: هو بخير يا سيدتي، فقد أطعمته ثلاث مرات، ولم أر قط قبله طفلاً بشوشاً مثله.

فما سمعت ذلك حتى ثار ثائر غضبي وصرخت قائلاً: لا تصدقي، لا تصدقي ذلك يا أماه، فإن فراشي خشن الملمس، والحليب الذي رضعته مرّ المذاق، ورائحة الثدي كريهة في أنفي، فيما شدّ ما بي من تعاسة!.

فلم تفهم أمي لغتي وكذلك المرضع لم تفقه ما قلته لأنني خاطبتهما بلغة العالم الذي أتيت منه.

وفي يوم الحادي والعشرين لولادتي، وهو اليوم الذي تعمدت فيه، قال الكاهن لأمي: إنني أهنئك يا سيدتي لأن ابنك ولد مسيحياً.

فقلت للكاهن مندهشاً: إذا كان الأمر كما تقول فأحرِ بأمك التي في السماء أن تكون تعسة بك لأنك لم تولد بعد مسيحياً.

فلم يفهم الكاهن ما قلته له بلغتي.

وبعد سبعة أقمار جاءنا عرّاف فتفرس في وجهي ملياً وقال لأمي: إن ابنك هذا سيكون زعيماً داهية وسيتبعه الناس طائعين.

فصرختُ بأعلى صوتي قائلاً: تلك نبوءة كاذبة، فأنا أدرى بنفسي وأعلم يقيناً أنني سأدرس الموسيقى والغناء ولن أكون إلا موسيقياً.

ولشد ما دهشت إذ لم يفهم أحدٌ لغتي مع أنني كنت قد بلغت ذلك الحد من عمري.

ولقد مرّ على ذلك ثلاثٌ وثلاثون سنة وقد ماتت أمي والمرضع والكاهن (ظلل الله أرواحهم برحمته). أما العراف فلا يزال حياً يرزق. وقد رأيته في الأمس أمام الهيكل فحدثته وحدثني وأطلعته على انخراطي في سلك أبناء الموسيقى فقال لي: قد طالما وثقت بأنك ستكون موسيقياً كبيراً، ولقد سبقت في أيام طفولتك فأنبأت أمك بمستقبلك هذا.

فصدقت قوله لأنه أنا نفسي نسيت لغة العالم الذي أتيت منه.

الرمانة

عشت مرةً في قلب رمانة. وبينما أنا جالس يوماً في خليتي سمعت حبة تقول: سأصير في المستقبل شجرة متعالية تترنم الأرياح بأغصانها وترقص الشمس على أوراقها، وسأكون قوية جميلة على ممر الفصول.

فأجابت حبة ثانية وقالت: ما أجهلك أيتها الرفيقة! فإني حين كنت صغيرة مثلك حلمت أحلامك. ولكنني بعد أن صرت قادرة على تحديد كل شيء بمقياس ومعيار أدركت أن جميع آمالي كانت باطلة؟.

ثم قالت حبة ثالثة: أما أنا فإنني لا أرى فينا ما ينبئ بمثل هذا المستقبل العظيم.

فأجابت حبة رابعة وقالت: إذا لم ترم حياتنا إلى مستقبل أنبل وأبهى فباطلة هي.

فوقفت إذ ذاك حبة خامسة وقالت: ما بالنا نتجادل فيما سيؤول إليه أمرنا في المستقبل في حين أننا لا نعرف ما نحن عليه اليوم؟.

فقالت حبة سادسة: إننا سنظل ابداً على ما نحن عليه الآن.

فأجابتها حبة سابعة قائلة: إن في ذهني صورة واضحة للمستقبل ولكنني لا أستطيع أن أرسمها بالألفاظ.

ثم تكلمت حبة ثامنة وتاسعة وعاشرة وحبوب كثيرة حتى تكلم الجميع فلم أفهم شيئاً لوفرة الأصوات وبلبلتها.

فتركت الرمانة في ذلك اليوم وأتيت فسكنت في سفرجلة حيث لا يوجد إلا قليل من الحبوب تعيش بصمت وسكون.

القفصان

كان في حديقة أبي قفصان.

وكان في أحدهما أسدٌ أحضره عبيد أبي من براري نينوى، وفي الثاني زرزور غريد لا يملّ الإنشاد.

وكان الزرزور يأتي في كل فجر إلى الأسد فيحييه قائلاً له: عم صباحاً يا أخي السجين!.

النملات الثلاث

اجتمع ثلاث نملات على أنف رجل كان نائماً في الشمس، فحيت كل منهن الأخرى بتحية قبيلتها. ثم وقفن هنالك يتحدثن.

فقالت النملة الأولى: إن هذه التلال والسهول التي نحن عليها اليوم هي أقفر جهة وطئتها في حياتي على الأرض، فقد طفت النهار بطوله أفتش عن حبة من أي نوع كان فلم أظفر بشيء.

فأجابت النملة الثانية وقالت: قد طالما سمعت أبناء قبيلتي يتحدثون عن مكان يطلقون عليه اسم الأرض الملساء الجرداء وما أكثر ما لهم في دورانها وحركتها من الآراء! وإنه ليلوح لي أننا نسير اليوم عليها لأنني جلت في جميع منعرجاتها وعطفاتها وخبرت نفسي حقيقتها.

فرفعت النملة الثالثة رأسها وقالت: أيتها الصديقتان، نحن الآن واقفون على أنف النملة العظمى - النملة الجبارة اللامتناهية، التي تعاظم جسمها حتى عجزت عن رؤيته عيوننا، واتسع ظلها حتى قصرت عن استقصائه مقاييسنا، وارتفع صوتها حتى كلت عن سماعه آذاننا هذه هي النملة الأزلية المالئة الأرجاء بلا نهايتها.

وعندما فرغت النملة الثالثة من كلامها نظرت كل من رفيقتيها إلى الأخرى وضحكتا من حديثها.

وفي تلك اللحظة تحرك الرجل في رقدته فرفع يده وحك أنفه فانسحقت النملات الثلاث تحت أصابعه.

حفار القبور

بينما كنت يوماً أدفن ذاتاً من ذواتي الميتة إذ وقف بي حفار القبور وقال لي:

أنت هو الرجل الفرد الذي وقع بقلبي دون جميع الذين يأتون إلى هذه المقبرة.

فقلت له: لقد سرني قولك يا صاح، ولكن لماذا وقعت بقلبك دون سواي من الناس؟.

فأجابني قائلاً: إن سواك يأتي باكياً ويعود باكياً، أما أنت فإنك تجيء ضاحكاً وترجع ضاحكاً.

على درجات الهيكل

رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل.

وكان جالساً معها رجلان واحد عن يمينها والآخر عن يسارها ينظران إليها.

وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليمنى كانت شاحبة وأن وجنتها اليسرى كانت موردة.

المدينة المباركة

خُبرت في حداثتي عن مدينة كان جميع الناس يعيشون فيها وفق تعاليم الكتاب، فقلت لنفسي: لأسعَ إلى تلك المدينة سعياً فأحظى بما فيها من البركة العليا.

وكانت المدينة بعيدة فأعددت للسفر كامل العدّة. وبعد مسير أربعين يوماً أشرفت عليها. وفي اليوم التالي دخلت إليها فإذا كل سكانها أعور أقطع. فأخذتني الحيرة وقلت لنفسي: وهل على كل من يعيش في هذه المدينة المقدسة أن يكون أعور أقطع!.

ثم لحظت أن القوم كانوا ينظرون إلي بدهشة أعظم من دهشتي، لأنهم هم أيضاً كانوا متعجبين من عيني ويدي.

وفيما هم يتحدثون سألتهم قائلاً: هل هذه هي المدينة المقدسة حيث يعيش كل إنسان وفق تعاليم الكتاب.

فقالوا: نعم هذه هي المدينة.

فقلت لهم: وماذا حلّ بكم؟ أين عيونكم اليمنى وأيديكم اليمنى؟.

فرثى الشعب لحالتي وأشفقوا على جهالتي وقالوا: تعالى وانظر.

ثم قادني واحد من متقدميهم إلى داخل الهيكل القائم في وسط المدينة.

وعندما دخلت الهيكل رأيت في الصدر رابية من العيون والأيدي الذابلة، فقلت لهم، والدهش آخذ مني كل مأخذ: بربكم قولوا لي أي غازٍ سفاح أغار عليكم فحكم بقطع أيديكم وقلع عيونكم؟.

فأنَّ الجميع بمرارة متعجبين من جهلي ودنا مني أحد شيوخهم وقال لي: يا ابني، إنما نحن الذين فعلنا ذلك بأنفسنا لأن الله سلطنا على الشر الذي كان حالاً بنا فاستأصلنا جرثومته. ثم قادني إلى مذبح عالٍ وجميع الشعب يتبعنا، وهناك أشار بإصبعه إلى آية محفورة فوق المذبح وطلب إلي أن أقرأها فقرأت: إذا كانت عينك اليمنى تشككت فاقلعها وألقها عنك، فخير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم. وإذا شككتك يدك اليمنى فاقطعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جنهم.

فأدركت إذ ذاك سرهم والتفت إليهم صارخاً: أليس بينكم رجل أو امرأة بعينين أو يدين؟.

فأجابوا قائلين: كلا، ليس بيننا أحدٌ سوى الصغار الذين لم يبلغوا بعد رشدهم ليقرأوا الكتاب ويعملوا بوصاياه.

وعندما خرجنا من الهيكل أسرعت فغادرت تلك المدينة المباركة. لأنني كنت بالغا رشدي وقادرا على قراءة الكتاب.

الإله الصالح والإله الشرير

اجتمع الإله الصالح مرة بالإله الشّرير على قنّة جبلٍ فقال الإله الصالح للشرير: عمْ صباحاً يا أخي!.

فلم ينبس الإله الشرير ببنت شفة. قال له الإله الصالح: يلوح لي أيها الزميل أن مزاجك متعكرٌ اليوم.

فأجاب الإله الشّرير قائلاً: نعم، أنا مستاء جداً لأن القوم في هذه المدّة الأخيرة صاروا لا يميزون بيني وبينك، وكثيراً ما أسمعهم ينادونني باسمك ولا أكره على نفسي منك ومن اسمك!.

فقال له الإله الصالح: إن هذا هو ما يحدث لي أيضاً في كل يوم أيها العزيز، فإن كثيرين من الناس ينادونني باسمك ويحسبونني إياك.

فمضى الإله الشرير في سبيله وهو يحرق الأرم في قلبه لاعناً حماقة الإنسان وجهله.

في خيبتي غلبتي

يا خيبتي، يا خيبة! يا وحدتي وانفرادي! إنك لأعز لديّ من ألف انتصار، وأحلى على قلبي من كل أمجاد الأقطار.

يا خيبتي. يا خيبة!

يا معرفتي لنفسي واحتقاري لذاتي، بك أعرف أنني لا أزال فتياً سريع الخطى، فلا تغريني أكاليل الغار الذابلة الفانية. بك قد حظيت بوحدتي وانفرادي وتذوقتُ لذة فراري واحتقاري.

يا خيبتي، يا خيبة!

يا سيفي البتار وترسي البراق. قد قرأت في عينيك: إن الإنسان متى جلس على عرش الملك فقد صار عبداً.

ومتى أدرك الناس أعماق روحه فقد طوي كتاب حياته.

ومتى بلغ أوجَ كماله فقد قضى نحبه.

بل هو كالثمرة إذا نضجت سقطت واندثرت.

يا خيبتي. يا خيبة!

يا رفيقي الباسل الودود، أنت وحدك تسمعين إنشادي وصراخي وسكوتي، وليس غيرك بمحدثي عن خفقان الأجنحة وهدير البحار، وعن قذائف البراكين الثائرة في دوامس الليالي.

أنت وحدك تتسلقين صخور نفسي الجلمودية الشامخة.

يا خيبتي، يا خيبة! يا شجاعتي التي لا تموت!

أنت تضحكين معي في العاصفة، وتحفرين معي قبوراً لما يموت مني ومنك، وتقفين معي أمام وجه الشمس بجلدٍ وثباتٍ، فنكون معاً هائلين راعبين.

الليل والمجنون

المجنون: أنا مثلك أيها الليل قاتمٌ عارٍ، أمشي على طريق ناريّ يمتد فوق أحلام نهاري. وحيثما تمس رجلي الأرض، فهناك تنبثق سنديانة جبارة.

الليل: كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنك مازلت تتلفت إلى ورائك لترى آثار قدميك على الرمال.

المجنون: أنا مثلك أيها الليل صامت وعميق، وفي قلب وحدتي تتكىء إلهة تتمخض بمولود علوي تأتلف بكيانه الجنة والجحيم.

الليل: كلا، لست مثلي أيها المجنون، فإنك لا تزال ترتعش أمام الآلام فيهولك سماع أناشيد الهاوية.

المجنون: أنا مثلك أيها الليل. آبدٌ جبار، فإنّ أذني مثقلتان بنحيب الأمم المستعبدة والتحسر على الممالك المهجورة.

الليل: كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأنّك لا تزال تتخذ ذاتك الصغرى رفيقاً وفياً، ولا تستطيع أن تتخذ لك من ذاتك الجبّارة صديقاً.

المجنون: أنا مثلك أيها الليل صارمٌ وفظيع، فإن قلبي لا يطرب إلاّ لرؤية لهيب المراكب المحترقة في البحار، وشفتيّ لا تستلذّان سوى دماء الأبطال المصروعين في ساحات الوغى.

الليل: كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن بك شوقاً إلى أخت روحك متسلطاً عليك يُسيّرك كيف شاء. ولم تصرْ بعدُ شريعةً لنفسك.

المجنون: أنا مثلك أيها الليل، جذلٌ وطروب، فإن الرجل الذي يرافقني سكران أبداً من الخمرة العذراء، والمرأة التي تصادفني ترتكب الإثم وهي منشرحة الصدر.

الليل: كلا، لست مثلي أيها المجنون، لأن روحك مقنعة بقناع ذي طياتٍ سبع وأنت للآن لم تحمل قلبك على كفّك.

المجنون: أنا مثلك أيها الليل، صبور وكئيب، فإن في صدري ألوفاً من قبور المحبين الذين ماتوا مخلصين فحنّطتهم الدموع وكفنتهم القبلات الذابلة.

الليل: وهل أنت مثلي؟ أحقاً أنت مثلي أيها المجنون؟ وهل تستطيع أن تمتطي العاصفة جواداً وتمتشق البرق حساماً؟.

المجنون: أن مثلك أيها الليل، أنا مثلك قدير عظيم، وقد بنيتُ عرشي على آكام الآلهة الساقطة وجعلت الأيام تمر أمامي صاغرة تقبل أهداب ثوبي من غير أن تجرؤ على التطلع إلى وجهي.

الليل: هل أنت مثلي يا ابن قلبي الدامس المدلهم؟ هل أنت مثلي؟ وهل تخطر لك أفكاري الجامحة أم تتكلم لغتي الواسعة البيان؟.

المجنون: بلى، إننا أخوان توأمان أيها الليل، فأنت تكشف مكنونات اللا نهاية، وأنا أكشف مكنونات نفسي.

الوجوه

رأيت وجهاً يظهر بألف مظهر. ووجهاً مظهره واحداً أبداً كأنما قد سبك في قالب.

ورأيت وجهاً قدرت أن أقرأ تحت طلاوته الظاهرة بشاعته المستترة، ووجهاً ما رأيت روعة جماله المحتجب حتى رفعت قناعه الظاهر.

ورأيت وجهاً شيخاً قد تجعد ولكن على لا شيء، ووجهاً ناعماً قد ارتسمت على ملامحه جميع الأشياء.

أنا أعرف الوجوه لأنني أنظر إليها من خلال ما ينسجه بصري فأرى الحقيقة التي وراءها بباصرتي.

البحر الأعظم

ذهبتُ ونفسي إلى البحر العظيم لنستحمّ بمائه. وعندما وصلنا إلى الساحل طفنا نبحث عن مكان مستورٍ عن الأنظار.

وفيما نحن نمشي رأينا رجلاً جالساً على صخرة غبراء وفي يده كيس يأخذ منه حفنات من الملح ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: هوذا المتشائم الذي لا يرى من الحياة سوى ظلها. فلنترك هذا المكان لأننا لا نستطيع أن نستحمّ أمامه.

فتركنا ذلك المكان وسرنا إلى أن بلغنا جوناً في الشاطىء، فإذا برجل واقف على صخرة بيضاء وفي يده صندوقة مرصعة بالجواهر يتناول منها قطعاً من السكر. ويرمي بها إلى البحر.

فقالت لي نفسي: هوذا المتفائل الذي يستبشر بما لا بشر فيه. فيجب أن لا يرى جسدينا العاريين.

فتابعنا مسيرنا إلى أن بلغنا إلى شاطىء قريب فرأينا رجلاً يلتقط أسماكاً ميتة ويعيدها إلى الماء بعطف وحنان.

فقالت لي نفسي: هوذا الإنساني الشفيق الذي يحاول إرجاع الحياة لمن في القبور. فلنبتعد عنه.

فعبرنا به وسرنا إلى موضع آخر فرأينا رجلاً يخطط ظله على المياه فتجيء الأمواج وتمحو خطوطه. ثم يعود فيخططه مرة بعد مرة.

فقالت لي نفسي: هذا هو المتصوف الذي يقيم من أوهامه صنماً يعبده فلنتركه.

فخلفناه وراءنا إلى جونٍ صغير في مكان آخر فرأينا رجلاً يكشط الزبد عن سطح الماء ويضعه في كأس من العقيق.

فقالت لي نفسي: هو ذا الخيالي الذي يحوك من خيوط العناكب رداء يلبسه، وهو لا يستحق أن يرى جسدينا العاريين.

ثم سرنا قليلاً فسمعنا بغتة صوتاً يقول: هذا هو البحر! هذا هو البحر العميق! هذا هو البحر الواسع الجبار! فسعينا إلى حيث خرج الصوت، فإذا برجلٍ قد ولى ظهره شطر البحر ووضع على أذننيه صدفة كالقرن وقعد يصغي إلى ما ترجعه من الصدى.

فقالت لي نفسي: سر بنا، فهذا هو الدهري الذي ينصرف عن الكليات التي تتجاوز فهمه إلى الجزئيات التافهة التي لا طائل تحتها.

فخلفناه وراءنا وانطلقنا إلى موضع آخر، فإذا برجل منحن بين الصخور وقد غمر رأسه بالرمل، فقلت لنفسي: هلمي يا نفس لنستحم ههنا لأن هذا الرجل لا يستطيع أن يبصرنا.

فهزت نفسي رأسها وقالت: كلا وألف كلا! فإن هذا الذي

تـراه هـو شـر خلق الله. هـو الرافضـي الخبيـث الـذي يحجـب نفسـه عـن مأساة الحياة فتحجب الحياة أفراحها عن قلبه.

فبدت إذ ذاك علـى وجه نفسـي أمـارات الحـزن والأسـى، وبصـوت تقطعه المرارة قالت: هلم بنا ننصرف من هـذه الشـواطىء لأنـه ليس فيها مكـان خفـي آمـن نسـتحم فيـه. فلـن أرضـى أن تعبـث هـذه الريـح بشـعري الذهبـي، ولا أن يكشـف هـذا الـهواء عـن صـدري النـاصع، ولا أن يظـهر هذا النور عُريي المقدس.

حينئذ تركنا ذلك البحر ناشدين البحر الأعظم.

المصلوب

صرخت بالناس قائلاً: أودّ لو تصلبونني. فقالوا: ولماذا يكون دمك على رؤوسنا؟ فقلت لهم: وكيف تفاخرون بأنفسكم إن لم تصلبوا المجانين؟.

فقبلوا قولي وصلبوني. وهدأ الصلب ثورة نفسي. وعندما كنت معلقاً بين الأرض والسماء رفعوا رؤوسهم وحدقوا إلي وهم يتمايلون عجباً لأن رؤوسهم لم ترتفع قبلُ إلى ما فوق أقدامهم.

وفيما هم مجتمعون حول الصليب رفع واحدٌ منهم صوته وقال لي: عن أي ذنب تكفر يا هذا؟

ثم قال آخر: بربك قل لنا ما الذي دعاك إلى التضحية بنفسك؟.

وتلاه ثالث فسألني قائلاً: أوتظن أيها الجاهل أنك تشتري مجد العالم بهذا الثمن البخس الذي تقدمه؟.

ثم قال رابع: تأملوا ابتسامته الخرساء كأن لم يحل به شيء! وهل في استطاعة بشري أن يبتسم لمثل هذا الألم؟.

فـالتفتُ إليـهم إذ ذاك وقلـت لـهم: اذكــروا ابتســامتي هــذه ولا تذكروا شيئاً غيرها. فأنا لا أكفر عن ذنب ولا أسعى إلى تضحية ولا أرغب في مجد وليس لي ما أصفح عنه. ولكنني قد عطشت فسألتكم دمي شراباً. وهل من شراب يبرد غلة المجنون سوى دمه؟ أجل! وكنت أبكم فسألتكم الجراح أفواهاً. وكنت سجيناً في ظلمة أيامكم ولياليكم فالتمست سبيلاً يؤدي بي إلى أيام أبهى من أيامكم وليالٍ أسعد من لياليكم.

وها أنا ذا ماض الآن إلى حيث مضى كثيرون ممن صلبوا قبلي. ولكن لا يخطر لكم أننا معاشر المصلوبين نعبأ بصلبكم، لأننا قدر لنا أن نصلب من قبل جبابرة أشد منكم قدرةً وبطشاً لنا أن نُصلب من قبل جبابرة أشد منكم قدرة وبطشاً بين الأرضين الدنيا والسماوات العليا.

الفلكي

رأيت وصديقاً لي أعمى جالساً في ظلال الهيكل وحده، فقال لي صديقي: هوذا أحكم رجل في قومنا.

فتركت إذ ذاك صديقي ودنوت من الأعمى فحييته وقعدت بجانبه أجاذبه أطراف الحديث. وبعد هنيهة سألته قائلاً: منذ كم أنت أعمى يا سيدي؟.

فأجابني وقال: منذ ولادتي يا بني.

فقلت له: وأي مذهب من مذاهب الحكمة تتبع؟.

فأجاب قائلاً: أنا فلكي منجم.

ثم وضع يده على صدره وزاد قائلاً: إنني أرصد هذه الشموس وهذه الأقمار وهذه النجوم.

الحنين الأعظم

ها أنا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا تربطنا محبةٌ عميقةٌ قويةٌ غريبة.

محبةٌ أعمق من أعماق أختي وأقوى من قوة أخي وأغرب من غرائب جنوني.

وكم هنالك من دهور تقضت قبل أن بدد الفجر الأول دياجير الظلمة عنا فرأى أحدنا أخاه.

قد شاهدنا ولادة كثير من العوالم واكتمالها وانحلالها بيد أننا بعدُ أحداث تواقون.

أجل، نحن أحداث تواقون ولكننا وحيدون مهملون.

نتكىء متعانقين عناقاً أبدياً ولكننا غير مستريحين. وهل من راحة لشوق مستعبد وشهوة لا تنفد؟.

أين إله النار المتلهب فيدفىء مضجع أختي؟

بل أين إلهة الغيث الفياضة فتخمد براكين أخي؟

وأنا أشقى الإثنين. من أين لي المرأة التي تتسلط على قلبي؟

في سكينة الليل تردد أختي في أحلامها اسم إله النار المجهول لتدفئتها.

وينادي أخي إلهة الغيث القصيّة لتبريد غلّته. أما أنا فمن ترى أنادي في غفلتي؟

لست والله أدري؟ لست والله أدري!

ها أنا ذا جالس بين أخي الجبل وأختي البحر.

ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا،

تربطنا محبة عميقة قوية غريبة.

وريقة عشب وورقة خريف

قالت وريقة عشب لورقة خريف: إنّك تُحدثين بسقوطك جلبة فتبعثرين أحلام شتائي.

فأجابتها الورقة مغتاظة: أيتها الدنيئة أصلاً وفصلاً الفظّة المعقودة اللسان، من أين لك الأحلام وأنت ملتصقة بقذارات الغبراء بعيدة عن موسيقى الفضاء لا تميزين بين الغناء والمواء؟.

قالت ورقة الخريف ذلك وهبطت على الأرض فنامت.

وعندما جاء الربيع أفاقت من نومها فإذا بها وريقة عشب.

ثم أقبل الخريف ووافتها هجعة الشتاء فنثر الهواء حواليها أوراق الأشجار الذابلة فتململت في ذاتها قائلة: اف من أوراق الخريف الثقيلة! إنها تحدث بسقوطها جلبة وضجيجاً فتبعثر أحلام شتائي.

العين

قالت العين يوماً لرفيقاتها الحواس: إنني أرى وراء هذه الأودية جبلاً مبرقعاً بالغيوم فما أجمله جبلا!.

فأصغت الأذن هنيهة لحديثها ثم قالت لها: أين ذلك الجبل الذي تنظرين؟ إنني لا أسمع صوته.

ثم قالت اليد: أما أنا فعبثاً أحاول أن أشعر به أو ألمسه. فليس هنالك جبل البتة.

وقال لها الأنف: إنني لا أستطيع أن أفهم كيف يوجد الجبل وأنا لا أقدر أن أشمه. ألا إن وجوده لمستحيل.

فتحولت العين إلى جهة أخرى ضاحكة في ذاتها. أما الحواس الأخرى فعقدن مجلساً بحثن فيه عما دعا العين إلى مثل هذا الضلال. وبعد البحث الدقيق قررن بإجماع الآراء: إن العين قد خرجت ولا شك عن صوابها.

العالمان

كان في مدينة أفكار القديمة عالمان. وكان كل منهما يمقت معرفة الآخر ويحتقرها. وكان الأول كافراً والثاني مؤمناً.

وحدث أنهما اجتمعا مرة في ساحة المدينة وطفقا يتجادلان ويتحاجان أمام أنصارهما في وجود الآلهة أو عدم وجودها. وبعد أن حمي وطيس الجدال بينهما بضع ساعات مضى كل منهما في سبيله.

وفي ذلك المساء بعينه ذهب الكافر إلى الهيكل وجثا على ركبتيه أمام المذبح مستغفراً الآلهة عن جموح ماضيه وصار مؤمناً.

وفي الساعة نفسها أخذ المؤمن كتبه المقدسة فحرقها في ساحة المدينة وصار زنديقاً كافراً.

عندما ولدت كآبتي

عندما ولدت كآبني أرضعتها حليب العناية وسهرت عليها بعين الحبّ والحنان.

فنمت كآبتي كما ينمو كل حي - قوية جميلة تفيض بهجة وإشراقاً.

فأحببت كآبني وأحبتني كآبتي، وأحببنا معاً العالم المحيط بنا، لأن كآبتي كانت رقيقة القلب عطوفاً فصيرت قلبي رقيقاً عطوفاً.

وعندما كنا نتحادث معاً، أنا وكآبتي، كنا نتخذ الأحلام أجنحة لأيامنا ومناطق لليالينا، لأن كآبتي كانت فصيحة طليقة اللسان فصيرت لساني فصيحاً طليقاً.

وعندما كنا نغني معاً، أنا وكآبتي، كان جيراننا يجلسون إلى نوافذهم مصغين إلى غنائنا، لأن غناءنا كان عميقاً كأعماق البحر وغريباً كغرائب الذكرى.

وعندما كنا نمشي، أنا وكآبتي، كان الناس يرنون إلينا بعيون تشع حباً وإعجاباً متحدثين بنا بأرق الألفاظ وأحلاها. غير أن بعضاً منهم

كانوا ينظرون إلينا بعيون الحسد ، لأن الكآبة كانت منقبة محمودة وأنا كنت متباهياً فخوراً بالكآبة.

ثم ماتت كآبتي كما يموت كل حيّ وبقيت أنا وحدي مفكراً متأملاً.

وها أنا ذا أتكلم الآن فتستثقل أذناي صوتي، وأنشد فلا يصغي أحد من جيراني لإنشادي، وأطوف في الشوارع فلا يعبأ أحد بي، غير أنني أتعزى إذ اسمع في منامي أصواتا تقول متحسرة:

انظروا! انظروا! فهنا يرقد الرجل الذي ماتت كآبته.

وعندما ولدت مسرتي

وعندما ولدت مسرتي حملتها على ذراعي وصعدت بها إلى سطح بيتي أنادي قائلاً: تعالوا يا جيراني ومعارفي تعالوا وانظروا! فقد ولدت مسرتي اليوم. تعالوا وانظروا فيض مسرتي الضاحكة أمام الشمس.

وشدّ ما كان دهشتي لأنه لم يأت أحدٌ من جيراني ليرى مسرتي.

وظللت سبعة أشهر أعلن مسرتي للناس بكرة وأصيلاً من على سطح بيتي ولكن لم يصغ أحد قط لصوتي. فبقيت ومسرتي وحيدين مهملين لا يعبأ أحد بنا.

وما مر على ذلك سنة حتى سئمت مسرتي حياتها فامتقع لونها واعتلت إذ لم ينبض بحبها قلب سوى قلبي، ولم يقبل فمها سوى فمي.

فقضت مسرتي في وحشتها وأمسيت لا أذكرها إلا عندما أذكر كآبتي.

وما الذكرى سوى ورقة خريف لا ترتعش في الهواء هنيهة حتى تكفن بالتراب دهراً.

العالم الكامل

يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة استمعني. أيها القدرُ الرحيم الساهر على نفوسنا التائهة المجنونة اصغ إليّ: فإني وأنا ناقص أعيش بين الكاملين من البشر. أنا، أنا البشرية المشوشة، السديم المضطرب العناصر، أتخطر بين عوالم تامة من شعوب قد كملت شرائعهم وتنزهت نظمهم وتنسقت أفكارهم وترتبت أحلامهم وتسجلت رؤاهم في الأسفار والدواوين.

رباه! إن هؤلاء الناس يقيسون فضائلهم بالمقاييس ويزنون خطاياهم بالموازين، ولديهم سجلات وفهارس لما لا يحصى من التوافه والنقائص التي ليست بالخطايا فتعرف ولا بالفضائل فتتصف.

ويقسمون أيامهم ولياليهم إلى أقسام مقننة مرتبة. فيفعلون كل شيء في حينه على وفق ما يخطر لهم. فالأكل والشرب والنوم وكساء العرية ثم السآمة والضجر ـ كل في حينه.

والعمل واللعب والغناء والرقص ثم الاستراحة عندما تحين ساعتها.

التفكير بهذا والشعور بذاك ثم العدول عن التفكير والشعور عندما يشرق نجم الأمل السعيد فوق الأفق البعيد.

سلبُ الجار بثغر باسم ومنح العطايا بيد تتوقع الثناء والشكر. ثم المديح بفطنة والملامة بترو وقتل النفس وإحراق الجسد بقبلة وغسل اليدين عند المساء كأن لم يكن هنالك من شيء.

المحبة بتقليد مطروق، والتسلية على منوال مسبوق. وعبادة الآلهة كما يحقّ ويليق. والاحتيال على الشياطين والمكر بالزنديق. ثم نسيان كل ما جرى وصار كأن الذاكرة حلم من أحلام الأغرار.

التصور لغاية والتأمل بعناية والمسرة بدراية والتأقلم بوقاية ثم إفراغ كأس الآمال رجاء أن تملأها الأيام في المآل.

رباه، رباه! إن جميع هذه يسبق الفكر فيحبل بها والعزيمة فتلدها والدقة فتربيها والنظام فيسودها والعقل فيديرها، ثم تنحر وتلحد في زوايا سكينة النفوس فتبقى قبورها الموسومة بالعلامات والأرقام عظة لنا ولجميع الأنام.

أجل، هذا هو العالم الكامل الذي قد بلغ أوجه، عالم الغرائب والمعجزات، بل هو أنضج ثمرة في جنان الله وأسمى عالم بين عوالمه. ولكن لم أنا ههنا يا رب؟ لم أنا ههنا وأنا ثمرة عجراء لم تنل بعد شهوتها من النماء، وعاصفة صماء هوجاء لا شرقاً تبتغي ولا غرباً، وذرة هائمة تائهة من كوكب محترق ثائر؟

لمَ أنا ههنا؟ لمَ أن ههنا يا إله النفوس الضائعة، أيها الضائع بين الآلهة؟

فهرس